الأعلام والرايات

للأستاذ أحمد رمزي بك

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

السلطان وأتباعه من الملوك المتغلبين :

كان أول من ملك مع خلفاء الإسلام وتلقب بالسلطان هم بنو بويه ، ثم جاءت دولة آل سلجوق ففاق ملوكها من تقدمهم وأصبحت دولتهم امبراطورية ضخمة ، خطب لملوكها فيما بين الصين وأسوار القسطنطينية ، ثم ظهر في أنحائها المختلفة اتباعها وهم :

بنو طغتكين	بالشام
بنو قطلميش	ببلاد الروم
بنو سكمان	بخلاط وارمينية
بنو ارتق	بماردين
بنو زنكي	بالشام
بنو أيوب	بمصر والشام
ثم الترك	الذين ورثوا ملك مصر (١)

ويهمنا منهم أمر زنكي : لأن صاحب النجوم الزاهرة يقول « أنشأ بنو زنكي بني أيوب سلاطين مصر وأنشأ بنو أيوب دولة الترك وأول ملوكهم الملك المعز « أيبك » . فانظر إلى أمر الدنيا وكيف أن كل طائفة سبب نعمة طائفة »(٢)

وتم هذا التسلسل في سيادة الممالك وتولي أراضيها وكل بيت جاء من اتباع من تقدمه وأصل الأتابكة أي آل زنكي هو قيم الدولة آق سنقر وكان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه ابن الب ارسلان السلجوقي .

وكان آق سنقر من اتباع هذا السلطان .

وبدأ ملكه في حلب(٣) والذي أشار بتوليته هذه المدينة الوزير نظام الملك .

وكان ملكشاه هذا من جملة الملوك السجوقيين المتغلبين على البلاد .

إذن كانت ولاية البيت الأتابكي في نطاق الدولة السلجوقية ، واستمرت هذه التبعية قائمة مدة زنكي وفي أيام نور الدين الشهيد ، وهي العلاقة القائمة بين التابع والمتبوع . كانت تنكمش أحياناً حتى لا تصبح شيئاً ثم تظهر في ترتيب المملكة وقواعدها ومرد ذلك إلى سلطة المتغلبين على الأراضي التي يفتحونها أو يستولون عليها . وبقدر ما يزيد استقلالهم يزيد تمسكهم بتقليد من كانوا هم تابعين لهم في أبهة الملك والسلطنة وأخصها الأعلام وترتيب الجيوش ونظام الأقطاع .

وتبدو هذه التبعية في ثنايا التاريخ غير واضحة تماماً فيما كتبه مؤرخو مصر والشام ، ولكن مؤرخي المشرق ، أقصد بذلك بغداد وما يليها من الأقاليم يتحدثون عنها في فقرات متباعدة .

ومن قبيل هذا ما جاء في ابن الجوزي عن حوادث سنة ٥٣٨(١) من أن العلاقات ساءت بين السلطان وزنكي ، حتى جمع الأول العساكر لقصد الموصل والشام وترددت رسل زنكي « حتى تم الصلح على مائة ألف دينار تحمل في ثوب فحمل ثلاثون ألفاً ثم تقلبت الأحوال فاحتيج إلى مداراة زنكي وسقط المال وقيل بل خرج ابن الأنباري فقبض المال » .

ولو شئنا تفصيل هذه العلاقات لخرجنا عن موضوعنا إلى دراسة الامبراطورية السلجوقية وعلاقاتها مع التابعين لها ، ومع ذلك أنقل فقرة لتفسير ما جاء في ابن الجوزي فنحن نعلم أن زنكي وجد ولايته وقد أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب . الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها وبيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج صاحب دمشق .

ولذلك جاء في أعلام النبلاء نقلا عن الروضتين « أن زنكي كان ينتصف منهم ويغزو كلا منهم في عقر داره ويفتح بلادهم ما عدا السلطان (مسعود السلجوقي) فإنه لا يباشر قصده ، بل

(١) تاريخ بن خلدون صفحة ٢٩ طبعة مصر ١٩٣٦ جزء ١ .

(٢) النجوم الزاهرة صفحة ٢٦٨ جزء ٥ .

(٣) كانت حلب والموصل ضمن أملاك السلجوقيين قبل تغلب الأتابكة عليها : إذ استولى عليها ملكشاه السلجوقي عام ٤٧٩ هجرية .

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم طبع حيدر أباد (فك الله قيدها) جزء ١٠ ص ٥٦ .

يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته »[١] وفى هذا تفسير الحاجة إلى مداراته .

ودليل على أن الخلافة كانت تتكئ أحياناً فلا تملك من الأمر شيئاً أمام سلطان السلاجقة والمتغلبين وأن سلطان هؤلاء كان ينصرف إلى السيطرة على أراضى المالك ، وهذا ما أجاب به الخليفة سنة ٥٣٠ حينما طالبه زنكى بمال لتجهيز الجند إلى واسط إذ قال « البلاد معكم وليس معى شىء فاقطعوا البلاد »[٢] أى أعيدوا توزيعها .

من هذا يتضح أن الخلافة العباسية أصبحت فى ذلك الوقت مظهراً دينياً أكثر من أن تكون صاحبة قوة وغلبة ، وأن شعائرها هى شعائر الخليفة الدينى العباسى وإن مبادرة السلاطين والملوك إلى الحصول على تقليد الخليفة ، كان القصد منه أن يؤكد الملك والفتح على أسس شرعية متفقة مع قواعد الدين : لا الخضوع إلى ملك العباسيين والإقرار بسيادتهم الفعلية[٣] .

فنور الدين حينما يرسل صلاح الدين لفتح مصر ، يفهم أنه يمد فى سلطانه وهذا فى حرصه على الاستقلال بمصر لا يجهر بما يبيته فى نفسه ، بل يحتفظ بمظاهر التبعية فى شعار المملكة وترتيبها ، كما كان يحرص الأتابكة فى الاحتفاظ بمظاهر التبعية لآل سلجق ما دام هؤلاء على شىء من القوة والعظمة ، فإذا ضعف السلاجقة أو الأتابكة أخذوا البلاد لأنفسهم وحملوا على إقرار الخليفة كما حصل من قبلهم آل سلجوق على الملك والسلطنة .

وفى ذلك يقول صاحب صبح الأعشى[٤] « واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكى ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام » .

وأنس أن الأتابكة لم يبتدعوا بل ساروا على سنن السلاجقة فى كل ما استحدثوه من أنظمة ثم كانوا حريصين على أن يحتفظوا بمظاهر السلطنة السلجوقية فى الأعلام والرايات وأنظمة الجند والأقطاع وغير ذلك . بل كان اتخاذ الأعلام السلجوقية مما يقوى مركزهم ويجعلهم مساوين لأصحاب هذا العلم ثم جاء صلاح الدين فمحى رسومهم واتخذ شعائر السلطنة على أعلامه ابتداء من فتح حلب كما سيأتى .

رؤوسهم :

حدد صاحب صبح الأعشى هذه الأعلام بقوله[١] « هى عدة رايات منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة ورابة عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ورايات صفر صغار وتسمى الصناجق » .

والدخول فى شرح هذا التقسيم واستعمال كل نوع وأصله مطلب صعب المرتقى ، ولكنى أكتفى بالإشارة إلى أن استعمال هذه الأعلام كان من عمل الدولة الكبرى أولاً أى من شعائر الدولة السلجوقية قبل أن يستعملها ملوك مصر من الترك أو الأيوبيين أو آل زنكى الذين كانوا فى ذلك مقلدين لا مبتدعين .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه : « وأول من حمل السنجق على رأسه من الملوك فى ركوبه غازى ابن زنكى وهو أخو السلطان نور الدين محمود ابن زنكى صاحب الشام » .

ونقل هذا صاحب صبح الأعشى[٢] فقال : « إن غازى أحدث حمل السنجق على رأسه فتبعه الملوك فى ذلك وألزم الجنود أن يشدوا السيوف إلى أوساطهم ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب » .

ويفهم من عبارته أنه اخترع هذا الشعار الذى أخذ به بعده أبناء عمه فى الشام ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة يقول : « الملك غازى ابن زنكى بن آق سنقر التركى أخو السلطان نور الدين محمود الشهيد الأتابكى هو أول من حمل السنجق على رأسه من الأتابكية ولم يحمله أحد قبله لأجل ملوك السلجوقية » .

ويقول صاحب عقد الجمان « وهو أول من حمل على رأسه

(١) أعلام النبلاء جزء ١ صفحة ٥١٦ .

(٢) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ابن الجوزى جزء ١٠ صفحة ٥٦

(٣) كان قيام سلطانين فى بغداد وما حولها مما أدى للصراع الخراب الى كثير من أراضى العراق الخصبة .

(٤) جزء ٤ عند كلامه على ترتيب المملكة .

(١) صفحة ٨ جزء ٤

(٢) من الجائز أن يكون السلجوقية أخذوا الكثير ممن تقدمهم من ملوك الترك .

السنجق من أصحاب الأطراف فإنه لم يكن فيهم من يصلح لأجل السلاطين السجوقية » .

إذن كانت الأتابكية أقل من السلطنة[١] وكان أصحابها من ملوك الأطراف وكانوا يتحاشون الأخذ بمظاهر السلطنة ، التي هي من حق ملوك آل سلجوق الذين لهم وحدهم هذا بانتمائهم إلى البيت المالك الذي يمثله سلطان السلاطين كما يفهم أن ملوك الأطراف كانوا يحاولون أن يتشبهوا بهم أعلى منهم ، وأن هؤلاء كانوا يمنعونهم من ذلك حتى لا يرقوا إلى مرتبة تقرب من مرتبة من يتولى الرياسة والصدارة بين السلاطين لأن استعمال شعار السلطنة مساء التساوى فى المرتبة والقوة .

ويظهر من كلام فضل الله فى عهد دولة المماليك الأتراك : « أن من عادة السلطان إذا ركب يوم العيدين ويوم دخول المدينة يركب وعلى رأسه العصائب السلطانية وهى صفر مطرزة بأذناب وترفع المظلة على رأسه وهى قبة منشاة بأطلس أصفر مزركش عليها طائرة من فضة مذهبة يحملها بعض أمراء الثبن وهو راكب فرسه إلى جانبه وأمامه الطبردارية شاة وبأيديهم الأطبار » .

ويطلق صاحب المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة[٢] ناقل

(١) قال ابن الديم : كان أتابك جباراً عظيماً هائبة وكان الشاووش (الجاويش) يصيح خارج باب العراق وهو خارج من القلعة : قارن هذا بنظام النوبة والنفخ فى البوقات وترتيب ضرب الدبادب والكوسات .

(٢) قارن لفظ أتابك مع أتاتورك وأتاتان والأخير يطلق على زعماء القوزاق ودخل هذا اللفظ فى اللغات الروسية والبولونية والألمانية . سبب تسمية زنكى بالأتابك : إنه لما نقله الموصل سلم إليه السلطان محمود السلجوقى ولديه الب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالمغاربى ليربيها . فلهذا قيل له أتابك لأن الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، أتا بالتركية هو الأب وبك هو الأمير فاتابك مركب من هذين المعنيين .

وكانت القاعدة لدى هذه الشعوب أن يفرق فى سن البلوغ بين الأولاد وآبائهم حتى ينشأوا على تربية بعيدة عن تأثير الوالد والوالدة ولذلك أصبح فى بلاط كل أمير وملك عدد من أولاد الملوك والأمراء يربى فى كنفه كما كان هناك نظام يقضى بتسليم أولاد السلاطين ليربوا فى كنف من يوثق فيه من كبار رجال المملكة .

لاحظ تطور الأتابكة فى مصر قبل أن أصبح اللقب يطلق على من يتولى الوصاية على السلطان القاصر ، ثم انتهى قبل أن أطلق على قائد الجيش نقيل للأمير أزبك أتابك العساكر المصرية : وهو لقب عظيم يشعر بالرابطة بين القائد وجنده .

هذه الفقرة بقوله : « العصائب المذكورة حرام وقد بطلت الآن والحمد لله » مما يدل على كراهية الناس لهذا النوع من مظاهر الأبهة المأخوذة من ترتيب ممالك آل سلجوق وبنى بويه وغيرهم .

ولكن اللون الأصفر بقى حتى نهاية استقلال مصر بل وأدخل على المظلة وهى من بقايا ترتيب الفاطميين مع أنها من صميم المراسم المصرية وليست من تقاليد ملوك الشرق من الأتراك وغيرهم .

اللون الأصفر واللون الأسود :

الذى أمكننى استخلاصه هو أن اللون الأصفر أصبح شعار السلطنة والأسود استمر للخلافة بل أن العصائب أصبحت فى بعض الأحيان من تقاليد الخلافة فى مصر : وهذا من أغرب ما أدخل من شعائر الملوك المتغلبين على نظام الخلافة المفروض أن يستمر عريقاً فى تمسكه بمراسم الأبهة العباسية ولا يأخذ بمظاهر أجنبية عن العروبة والإسلام . فمن ناحية اللونين والعلمين أشير إلى ما جاء فى السلوك[١] .

« إن رسل ملك القبجاق وصلت إلى مصر ومعهم كتاب بالخط المغلى يتضمن أنه أسلم ويريد أن يتمم نعمة من نعوت الإسلام ويهجز له علم خليفتى وعلم سلطانى يقاتل بهما أعداء الدين » .

وجاء فى تاريخ أبى الفداء[٢] من حوادث ربيع الآخر سنة ٧٣٢ هجرية حينما جاء ابن أبى الفداء بعد وفاة والده إلى القاهرة فى ربيع آخر سنة ٧٣٢ هجرية .

« ركب بشعار السلطنة الملك الأفضل الحوى بالقاهرة ، وبين يديه الناشية ، ونشرت العصائب السلطانية والخليفية على رأسه وبين يديه الحجاب وجماعة من الأمراء وفرسه بالرقية وأمامه الشبابة وصعد إلى القلعة » وفى هذا تصديق لما بدأ به هذا البحث من قيام شعارين .

فلا محل إذن للتساؤل عن اللون الأسود العباسى وعدم

(١) هو منجو بن طوغان بن باطو بن دوش بن جنجيز خان السلوك صفحة ٧١٦ .

(٢) تاريخ أبى الفداء صفحة ١٠٥ جزء ٤ .

اختياره للاعلام فى مصر بعد زوال الدولة الفاطمية إذ أن ولاية الأيوبيين كانت مرتكزة على آل زنكى وهؤلاء يتبعون آل سلجوق ويتقلدون بهم وقتئذ لما دخل صلاح الدين حلب وتيقن تمكن ثبوت ملكه « نشر سنجق السلطان الأصفر على سور القلعة وضربت له البشائر »(١) .

فهو قد شعر فى هذه اللحظة بقوته ، ونما نحو السلاجقة من آل سلجوق ، وطمع فى أن يعامل مثلهم ، فاتخذ شعارهم وجعل علمه أصفر اللون ، وهو علم السلاجقة الذين يسيطرون على الأرض(٢) ، وطمع أن يصل إليه التقليد من خليفة بغداد (٣) بإقامته سيداً على الأراضى والممالك التى دانت له .

تراث الدولة السلجوقية :

إننى لا أزعم أن آل سلجوق ابتدعوا كل شىء ، بل أقول إن طبيعة الأشياء تحتم أنهم أخذوا ممن تقدمهم أشياء ليس يوسعنى تحديدها بواسطة ما لدى من مراجع ، وإنما عمل الباحثين سواى موالاة البحث عنها ، ولكنى أقول أن أثرهم كان كبيراً فى ترتيب نظام الممالك التى جاءت من بعدهم : وأقول أن نظام الإقطاع فى التاريخ الإسلامى لن يتقدر له البحث العلمى الصحيح بدون أن نلم بأصل هذا النظام فى أواسط آسيا وترجع إلى نشأته الأولى .

وكذلك نظام الجيوش وتعبئتها ومراتبها تأثرت إلى حد كبير بما أدخله السلجوقيون ، ولن تقدر قوة دولتى المماليك العسكرية بدون أن نلم بما كانت عليه أنظمة جيوش السلاجقة .

ولم يكن أثرهم قاصراً على مصر والشام بل شمل الجزء الشرقى من العالم الإسلامى وأخذ به ملوك خوارزم من بعدهم(١) « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية جرى على منهجهم أو ما قاربه وجاءت الدولة التركية وقد تنقحت المملكة وترتبت فأخذت فى الزيادة وفى تحسين الترتيب وتمهيد الملك وقيام أبهته ، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها ، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب وفاقت سائر الممالك ونفر ملكها على سائر الملوك »(٢) .

وفى ذلك يقول الأستاذ فيت : « إن سلاطين المماليك كانوا الوحيدين الذين نجحوا فى تاريخ مصر فى تأسيس امبراطورية ضخمة »(٣) .

أما تفسير اختيار الراية الصفراء التى أشار إليه بيبرس فى كتابه إلى بومند صاحب طرابلس الشام بقوله « إن رايتنا الصفراء قد علت على رايتكم الحمراء وسادت الأرض » فأرده إلى أواسط آسيا حيث منبت السلاجقة ، فقد وجدت فى كتاب « تاريخ مدنية الأتراك (٤) » تأليف « ضيا كوك ألب » إن الأتراك اتخذوا لعناصر الحياة : الماء والتراب والنار ألواناً : فالسواد للماء والبياض للنار واللون الأصفر للأرض وقال « طوبراغك رنكى صاريدر » .

فهل اتخذت الراية الصفراء من القدم شعاراً لسلطان الأرض ؟

إنه ليصعب على أن أقرر شيئاً من ذلك ، حتى بعد المعلومات المتفرقة التى وضعتها أمام القارىء ، لأن ما نعلمه عن آل سلجوق وبنى بويه وآل سبكتكين وغيرهم من المتغلبين لا يزال فى حاجة إلى الجمع والتبويب والتنظيم .

وإن كنت أقرر أن بحث نظام الإقطاع فى تلك الأزمان سيفتح لنا حتما الطريق الذى يوصلنا إلى نواح لا تزال مجهولة ، أرجو أن يتولاها المهتمون بالتاريخ الإسلامى بعنايتهم .

أحمد بدوى

(١) أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء ص ١٣٢ ج ١٠ نقلا عن الروضتين .

(٢) فى سنة ٦٥٥ أرسل آخر خلفاء بنى العباس للمستعصم بالله : الخلعة والطوق والتقليد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبى .

(٣) لاحظ العلاقة بين السلطان والأراضى التى يحكمها واللون الخاص بالسلطنة كما سيأتى فى هذا البحث وهى علاقة تعويض لا تملك :

« طلب العادل من السلطان صلاح الدين كتاباً بولاية حلب ككتاب البيع والشراء فامتنع صلاح الدين وقال إنما تكون إقطاعاً : ولما اجتمعا قال له : « أظننت أن البلاد تباع أو ما علمت أن البلاد لأهلها للراجلين بها ونحن خزنة للسلطان ... أو ما علمت أن السلطان ملكشاه السلجوقى لما أوقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا الفقهاء » أعلام النبلاء صفحة ١٥٠ جزء ٢ .

(١) تاريخ أبى الفداء ص ١٤٨ جزء ٤ .
ضرب خوارزم شاه لأولاده النوب الخمس فى أوقات الصلاة على عادة الملوك السلجوقية .

(٢) دولة الأتراك بمصر . ترجمة للملكة صبح الأعشى ج ٤ ص ٥

(٣) كتاب مساجد القاهرة ص ٤٧ .

(٤) طبعة استانبول ص ١١١ ج ١